صدى الحرية

أسبوعية ثورية اجتماعية
ثقافية منوعة

للتواصل وإرسال المشاركات :

Facebook / SadaALhoryeh ** freequd@gmail.com

فريق QMT قدسيا الإعلامي

خلط الأوراق
بين الصراخ والجعير
لا تصدقوا الأمريكيين
حنين...
كانيبالية المسيحية...
فايز الغندور

صدى الحرية
العدد 79
الجمعة 26
أيلول 2014

خلط الأوراق

شهدت المدينة عودة تدريجية لحركة السوق والناس، بعد الحصار الذي دام لبضعة أيام، انطباع الشارع يبدو متفاوتاً، والمطالعة لصفحات التواصل الاجتماعي التي باتت إحدى بوابات الإعلام الجديد تظهر حالة المتململ، بكافة الأحوال الخروج من الحصار لا يعني نهاية المطاف، فأسبابه قائمة بوجود محركين عابثين بمصير الناس يقفون في الصف المقابل، والقاعدة الواجبة التطبيق " الحيطة والحذر "، متزامنةً مع إعادة بناء الثقة بين الثوار والشارع، وواجب الشرفاء ردم الهوة.

على صعيدٍ آخر، فالضربة العسكرية التي وجهها التحالف الدولي على " داعش " سيحول المشهد في المنطقة على كافة الأصعدة دولياً وإقليمياً، في وقتٍ مازال البحث فيه عن الشرعية، شرعية الضربات، وشرعية إعلان " دولة الخلافة " بالتالي تحديد الموقف منه، والعمل بناءً على ذلك، وفي الوقت الذي غاب فيه الحديث عن شرعية ما يقوم به نظام الأسد من مجازر مروعة بحق المدنيين، ومن ورائه حلفائه " الميليشيات الشيعية " التي تندرج بدورها تحت مسمى " قائمة الإرهاب"، فهل ترقى جرائم " داعش " لتلك الجرائم التي ارتكبها النظام؟ لا نبرر، فالجريمة هي الجريمة، إلا أن كثيراً من الشواهد والمعطيات على الأرض تقول بأن " أحرار الشام، وجبهة النصرة " من يتلقون الضربات، بينما تُستهدف " داعش " وهمياً وإعلامياً، ولنا أن نسأل عن سر تأخر الضربة للنظام السوري، وميليشياته الطائفية التي استقدمها؟ والأمر الآخر أن الغموض الذي اعترى ملف تنظيم الدولة ساهم في خلط الأوراق وبالتالي اتخاذ موقف واضح مما يحصل، فالمعركة بدأت تديرها " أجنداتٌ إعلامية " وإن كانت متناقضة، لكنها متقاطعة.

من ناحيةٍ أخرى تقف دول الخليج على نفس الثوابت من الخوف على عروش حكامها، وتمنح الشرعية وفق هذه الثوابت، في حين لم تستطع أن تتحرك لردع الأسد، لا لضربه، وتعطي لنفسها شرف المساهمة العسكرية والمالية في هذه الجولة، دون أن تسأل عن مصير السوريين.

ومن السهل أن نخلص لفرضيتين، إحداهما أن الحرب على " داعش " هي حرب على الإسلام السني، والثانية: أن القوى الدولية والخليجية ومن خلال التهويل الإعلامي لخطر التنظيم، شكل ذلك عامل جذب واستقطاب للكثير من المجاهدين إلى أرض سوريا لتجميعها وضربها والتخلص منها دفعةً واحدة، ومن المحتمل أن نشهد تشكل حلفاً مضاداً للتحالف الدولي، بخلاف حلفاء النظام، معارضاً له وبتوجه إسلامي، ومهما اختلفت القراءة للواقع فإننا في بدايات حرب مفتوحة مختلفة بطبيعتها وأهدافها وتعدّد مسارحها وصعوبة التكهّن بمفاجأتها وموعد نهايتها، فهي حرب تدور على الأرض العربية وستُحدّد نتائجها مستقبل أنظمة ودول وخرائط وتوازنات، ولن تكون الحربُ سهلةً، فالتحالف الجديد سيهزّ الإقليم، وهذا النوع من الحروب لا يمكن أن تغيب عنه الخسائر في صفوف المدنيين. ثم إن الخبراء يقولون إن القوة الجوية وحدها لا يمكن أن تحسم الحروب. يبقى تساؤل: من سيملأ الفراغ إذا تبعثرت قوات «داعش» أو «النصرة» في هذه المنطقة أو تلك؟ وهل «الجيش الحر» جاهز وماذا لو تقدم النظام لقطف الثمار؟.

لا شك في أن صفحة جديدة قد فُتحت في المنطقة. أغلب الظن أن الانتصار على «داعش» في سورية سيفرض التوجه نحو حل سياسي في دمشق.

إن موقفنا مما يحدث لا يبنى إلا على حقائق، وطالما أن الحقائق ما تزال غامضة، فإننا كمسلمون مطالبون بالبحث لبلوغها، لا البكاء والتفرج، ودراسة تاريخ وتجربة مثل هذه التنظيمات مع الغرب، ومن ثم إسقاطها على الواقع يعطينا بما لا يحمل الشك خريطة ما سيحدث، وشكل المستقبل.

جورج بوش الابن قال من على ظهر حاملة طائرات بعد شهرين من دخول الأميركيين العراق: «المهمة أنجزَت»، وتبيّن أنها لم تُنجَز أبداً، وإنما خاضت الولايات المتحدة أطول حرب في تاريخها، وهي لا تزال تخوضها بوسائل أخرى حتى لو أنكرت.

لا تصدقوا الأمريكيين
من يستوعب ما يجري.. يقدر ما سيأتي

نيل شيب

شواهد من اللحظة الراهنة: قالوا: التحالف ضد داعش.. وأسموه ضد الإرهاب.. وطالت حملتهم العسكرية منذ أيامها الأولى مواقع ثوارٍ مخلصين ضد الهمجية الأسدية.. قالوا: إن حملتهم ستقترن بتزويد من يسمونهم المعتدلين في سورية بالسلاح، ولم يصل السلاح إلى من يسمونهم « معتدلين»، بمن فيهم من لم ينقطع يوماً عن السعي للارتباط بدعم أجنبي.. قالوا: إنهم لن ينسقوا مع إيران بشأن حملتهم العسكرية الراهنة، ولم تنقطع الاتصالات على أعلى المستويات الرسمية مع المسؤولين من إيران، من جانبهم ومن جانب «أتباع سياسيين» لهم.. . . . شواهد من «الربيع العربي».. قالوا: إنهم سيدعمون الحل الوسطي الخليجي الذي أوقف الثورة الشعبية في اليمن، ولم تنقطع حملاتهم العسكرية على المقاتلين الذين ينسبون أنفسهم إلى «القاعدة».. ولكنهم تركوا «الحوثيين» حتى سيطروا على صنعاء نفسها.. قالوا: إنهم يعارضون إسقاط رئيس منتخب في مصر، وهاهم يتعاملون –كأن لم يكن شيء– مع الرئيس العسكري الانقلابي في مصر.. قالوا: إنهم يعارضون التدخل العسكري الإقليمي في ليبيا، ولا يزال الدعم متواصلاً للطرف الذي تلقى دعماً إقليمياً عسكرياً بالفعل وما زال يتلقى.. . . . شواهد «قادمة» في سورية.. قالوا: لا شرعية لمن يسمى رئيساً في سورية ولا تعامل معه في الحملة على داعش.. وليس السؤال هل ستأتي، بل متى ستأتي اللحظة الكاشفة، ليتعاملوا معه مباشرةً، أو مع بديل يقوم مقامه دون تغيير نهجه، أي بأسلوبٍ «حفظ ماء الوجه» على فرض وجوده لديهم!.. . . . إن الاعتماد على «كلمة» سياسية أمريكية أو «وعد» أمريكي، أو سلاح أو تحالف أو أي صيغةٍ من صيغ الارتباط بالهيمنة الأمريكية، هو من أكبر الخطايا المرتكبة في بلادنا العربية والإسلامية على امتداد العقود الماضية. هل تبدلت الولايات المتحدة الأمريكية ليحدث الآن جديد غير ما كان من كوارث حتى الآن؟.. لم تتبدل.. لم تتبدل «منظومتها الأخلاقية» ولا «معاييرها المصلحية المنفعية» ولا أهداف «هيمنة شرعة الغاب».. ولهذا لا تتبدل السياسات العدوانية المخادعة. لا سبيل للإنسان في كل مكان، وليس في سورية وشقيقاتها الأخرى فقط، إلى مواجهة همجية الهيمنة الامبراطورية الحديثة إلا على طريق من أسقطوا همجية هيمنة أكثر من امبراطورية عبر التاريخ، فكانوا دوما هم «القلة الأضعف» في البداية، ولكن فرضوا أنفسهم.. وفرضوا واقعاً جديداً على الأرض.. اعتماداً على إمكاناتهم الذاتية وإمكانات شعوبهم، فاندحرت الغزوات الامبراطورية الكبرى كما سقطت الامبراطوريات الكبرى نفسها في نهاية المطاف. تتبدل الوسائل والظروف.. ولم يتبدل الجوهر. لهذا نجد أنفسنا اليوم على بداية طريق تغييرٍ تاريخي، شاء الأمريكيون والمستبدون أم أبوا، وكما انتصرت إرادة الشعوب في نهاية المطاف، لا بد أن تنتصر الآن أيضا..

لا شك في الحصيلة آجلاً أو عاجلاً.. ولكن لا نجعلها شعاراً «كلامياً».. لن يصل إلى حصيلة التغيير من يقول: لا طاقة لنا اليوم بأمريكا وقدراتها.. وهو يعلم أنها «جالوت» هذا العصر.. لن يصل إلى حصيلة التغيير من يقول: إنا هاهنا قاعدون، فسيقعدون وينتصر سواهم.. لن يصل إلى حصيلة التغيير إلا القلة القليلة التي تثبت الآن على طريق التحرر الحقيقي الفعال لإرادة أفرادها وإرادة قياداتها، والتي تواصل العمل بطاقاتها وإمكاناتها الذاتية.. كي تكون صادقةً في لجوئها إلى الله: ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا. والله غالبٌ على أمره.. والله قوي عزيز.

كانيبالية المسيحية و داعشية الإسلام

"لا تظنوا أنّي جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا، بل سيفًا" (متى 34:10).

يعلّق البروفيسور "بارت إيرمان" أستاذ الدراسات الدينية في جامعة نورث كارولينا على الكلام الوارد في الإنجيل، والمنسوب لـ"يسوع" فيما نحسب، بالقول: "لم يقل قائل كلاماً أكثر صدقاً من هذه المقولة، يعتقد الكثير من المسيحيين في عصرنا الحاضر بأن دينهم دين سلامٍ ومحبةٍ، تماماً كما كان في الماضي، وتماماً كما يجب أن يكون دائماً، ولكن أي شخصٍ له أدنى وعي بالتاريخ يعلم جيداً مدى عنف المسيحيين خلال كافة العصور، تبنوا فيها القمع، الظلم، الحروب، والحملات الصليبية وهي تتم بمباركة وتشجيع البابا في الفاتيكان، هجوم العصابات التفتيشية، والهولوكوست المتعدد في أمريكا اللاتينية، والشمالية، وأستراليا باسم المسيح والمسيحية، بالإضافة إلى الأثر المسيحي الواضح في بروز وتشجيع معاداة السامية، حدث كل هذا باسم الإيمان". ويضيف البروفيسور إيرمان، قائلاً: "القليل جداً من بين الديانات في تاريخ الجنس البشري، قد أظهرت ميلاً أكثر للعنف من الديانة التي تأسست حول تعاليم "يسوع"، الذي تصديقاً لكلماته، قد جلب بالفعل سيفاً".

وقد كانت الحروب الصليبية التي ذكرها البروفيسور "إيرمان" بياناً، ودليلاً عملياً، على همجية، ووحشية ما قامت به شعوبٌ، وممالك، وكنائس باسم العقيدة، والدين، ضد العرب، والمسلمين في المشرق العربي، فقد تصاعدت حمى الحرب، وجنون القتل في أوروبا، واندفع الناس بمختلف انتماءاتهم الاجتماعية، والطبقية، ملوكٌ، وأمراءٌ، وفرسانٌ، وإقطاعيون، وفقراءٌ، وعبيدٌ، ورجال دينٍ، بشكل جماعيٍّ، ومحمومٍ تلبية لنداءات الباباوات، والملوك المتكررة للمشاركة في الحملات العسكرية المتعاقبة، ضد بلاد المسلمين.

وقد شهدت الحملات الصليبية مجازر، وجرائم، وانتهاكاتٍ لا تحصى، وقد شملت أعمال القتل، والذبح، والحرق، والتعذيب، والاغتصاب كلّ مَن كانوا يصادفونه، سواء أكان محارباً، أم غير محارب، وسواء أكان رجلاً، أو امرأةً، أو طفلاً، أو شيخاً، ولم تنجُ منها أيّة مدينةٍ، أو بلدةٍ، وطالت أيضاً، بعض المسيحيين من أتباع الكنائس الشرقية، وأبناء الطوائف، والأقليات، إلا من تحالف معهم، وقبل العمل لحسابهم. وربما كانت أفظع أعمال الصليبيين أكلهم لحوم أعدائهم، بعد طهيها، أو شيّها، ولم تكن مجزرة "معرة النعمان"، إلا أحدها، وهي التي ذكرها أكثر من مؤرخٍ مسيحيٍ، منهم مثلاً، "ريمون دي جيل"، راهب نوتردام لي بوي، وهو الذي رافق الحملة الصليبية الأولى (1096-1099)، وأرخ أحداثها، في كتابه: "تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس"، وكانت "المعرة" ذات التعداد السكاني الكبير، على ما يقول "دي جيل" في كتابه، قد وقعت بيد الصليبيين، بعد سقوط مدينة "البارة"، التي ذُبح معظم أهلها، وأرسل من بقي منهم حياً ليباع كرقيقٍ في أنطاكيا.

يصف "دي جيل" في كتابه تلك المجزرة، بالقول: "أعطانا الرب الموجود دوماً المدينة حسبما وعد رسله".

"غير أن بعض حملة الصليب ممّن لم يعبأ بحياته، لأن الجوع جعلهم يحتقرون الحياة، استمروا في مقاتلة أهل "المعرة" تحت جنح الظلام، وهكذا حصل الفقراء على حصة الأسد من الغنائم والبيوت في "معرة النعمان"، ولم يجد الفرسان الذين انتظروا حتى الصباح ليدخلوا سوى بقايا ليس لها قيمة، وفي هذه الأثناء كان المسلمون يختبئون في مغائر تحت الأرض، وبالفعل لم يظهر منهم أحدٌ في الشوارع، واستولى المسيحيون على جميع السلع التي كانت فوق الأرض، ودفعتهم الآمال للحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض، فأطلقوا الدخان، والنيران، والأبخرة الكبريتية، على الأعداء لإخراجهم من مغائرهم، وخيب نحبهم للمغائر آمالهم، وعندها عذبوا كل واحدٍ من المسلمين وصلت أيديهم إليه، حتى الموت، ثم يضيف: وقد رميت جثث المعريين في السباخ، والأماكن الواقعة خلف الأسوار".

ويحاول "دي بوي" تبرير أكل لحوم أهل "المعرة"، فيقول: "وما لبث أن أصبح شحّ الطعام حاداً، إلى درجة أن المسيحيين كانوا يأكلون بكل متعةٍ، وتلذذٍ جثث المسلمين الجائفة، التي كانوا قد رموها في السباخ قبل أسبوعين، أو ثلاثة".

ويضيف: "كانت ردود فعل المسلمين والأتراك وتعليقاتهم على ما شاهدوه قولهم، إنّ هذا العرق العنيف الذي لا يعرف الرحمة، ولم يزحزحه الجوع، أو السيف، أو شتى المخاطر لمدة عامٍ عن أسوار أنطاكيا، ويتلذّذ بأكل اللحم البشري، لا يمكن أن يقاوم، أو يقهر، من الذي يستطيع فعل ذلك؟ ولم ندرك وقتها وقع ذلك، وأثره، وأن الرب قد جعل منّا سبباً من أسباب الرعب".

أما المؤرخ "ألبير دي أكس" فقد قال: "ليس فقط لم يتردد المسيحيون من أكل قتلى الأتراك والعرب، ولكن حتى الكلاب".

وعندما انتشرت أخبار تلك الفظائع البربرية، وشاع خبر إقدام الجنود الصليبيين على طهي المسلمين البالغين في القدور، وشيِّ الأطفال بالنار، والتهامهم، أن عمدَ قادة الحملات إلى إرسال بيان رسمي لبابا الفاتيكان، يبررون فيها أفعال جنودهم، بأن مجاعةً فظيعةً أصابتهم، مما اضطرهم إلى أكل لحوم أعدائهم.

لكن الحقيقة ربما تكون خلاف ذلك، فـ''الكانيبالية'' لم تظهر لأول مرة خلال الحروب الصليبية، ولم تكن مسبباتها الجوع فقط، ومن يتعمق في نصوص الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد، سيجد قصصاً، وصوراً، وإيحاءاتٍ متعددةٍ لممارسات أكل لحوم البشر، وشرب دمائهم، على سبيل التطهير، أو العقاب، أو الانتقام، والردع، ولعل ما يحمله طقس ''المناولة المقدّس'' المسيحي من رمزية أكل لحم ''السيد المسيح''، وشرب دمه، كشعيرةٍ إيمانيةٍ تطهريةٍ أولى، ما يغني عن التفصيل أكثر.

ليس الغرض من الاستعراض السابق مهاجمة المسيحية، ولا الأخذ على أتباعها ومعتنقيها، لكن يبدو أنه كان من الضروري جداً تذكير البطاركة، والكرادلة، والزعماء الروحيين للكنائس الشرقية، به، فالحاضرون مؤخراً في مؤتمرٍ للدفاع عن مسيحيي الشرق، في واشنطن، قد طالبوا بحماية ''بشار الأسد''، وإعادة تأهيل نظامه، ودعوا الولايات المتحدة لتبني حلف ''الأقليات''، ضد الأغلبية السنية المضطهدة.

ويبدو من الضروري جداً، أيضاً، تذكير أولئك الذين هالهم اضطهاد ''داعش'' وتهجيرها لمسيحيي، وإيزيديي العراق –مع أن العديد من مرويات وقصص ما جرى حوت قدراً من التهويل والمبالغة والكذب– أنه لم نسمع لهم صوتاً معترضاً، ضد مجازر قوات ومليشيات ''الأسد''، و''المالكي''، ''ونصر الله''، و''الحوثي''، و''السيسي''، وغيرهم.

ومن المفيد أيضاً تذكير أولئك السادة، أن القيم والمبادئ السامية كالعدل، والحرية، والوقوف في وجه الظلم هي مسلماتٌ عامةٌ، ولا يمكن تجزئتها، أو حصر مزايا التمتع بتلك الفضائل، أو ادعاء شرف تبنيها، وحمل لوائها، بأتباع دينٍ، أو طائفةٍ، أو عرقٍ.

في حين لا يبدو أن موقفهم في مناصرة الاستبداد، وتولي الطغاة نابعاً في حقيقته عن مخاوف، أو هواجس مبررةٍ، بقدر ما يبدو في حقيقته تعبيراً عن حالة ''داعشية ثقافية''، وهوياتيةٍ، مرتكزةٍ على أحقادٍ، وعنصريةٍ، وكراهيةٍ، وجهلٍ، واستعدادٍ عدائي مسبقٍ، تجاه فئةٍ، يعد أفرادها مكوناً وطنياً أساسياً، وشريكا إنسانياً مفترضاً لهم.

والحقيقة أن سرديات ادعاء المظلومية التي ترددها الأقليات في بلادنا، وتتمسك بها، للحصول على الاعتراف بأوضاعٍ قانونيةٍ خاصةٍ بهم، أو لاحتكار امتيازاتٍ سلطويةٍ متميزةٍ، لا تصمد أمام شواهد التاريخ، وحقائق الواقع، ذلك أن وقائع مظلومية الأغلبية تاريخياً، وراهناً أكبر، فضلاً عن أن من تحالف مع غزاةٍ، ومحتلين، ومن تواطأ مع مستبدين، ومجرمين، لا يجوز له التبرم لاحقاً ممّا قد يقع عليه، أو على أتباعه من ردود أفعالٍ، وتبعاتٍ.

أما الحداثة، والرقي، والانفتاح الذي تدعي الأقليات احتكاره –وخصوصاً المسيحيون– في مقابل ظلامية، وجهل، وتطرف سني كما يدعون، فليس راجعاً لتميز، أو اعتدال قيم العقيدة المسيحية، وعقائد الأقليات الباطنية، وليس مرده اختلاف تكويني، أو تنشئة اجتماعية، أو تفوق أخلاقي، وإنساني لهم... فتلك الحداثة –إن وُجدت– ما كانت لتحصل لولا دعم، واحتضان الدول الأوروبية، ومساندتها للأقليات في وجه سلطةٍ الدولة العثمانية، وكانت في حقيقتها، أيضاً، تمثل إعلاءً للروابط الدينية، والصلات الأجنبية مع أنظمة أوروبا المسيحية، على حساب الروابط الوطنية مع شركاء بلادهم من المسلمين.

ولا شك أن التداعيات، والنتائج السلبية للمواقف، والسياسات الأقلوية المتبعة حالياً، لن تقل في أثرها التخريبي، والتدميري على حياة الناس، وبنية المجتمعات، والأوطان، عما ينتجه الاستبداد، والتطرف المقابل.

والآن ربما صار مفهوماً، كيف لبعض المظلومين، والمعنفين، ومن أُكل أسلافهم، وخُنقوا بالأبخرة الكبريتية، ومن يقتل أبناؤهم، وإخوانهم بالبراميل، وبالأسلحة الكيماوية اليوم، ثم يشهدون كيف يقوم القساوسة، وشيوخ الأزهر، والمفتون بالوقوف خلف القتلة والسفاحين، والدفاع عنهم، أن يجترئوا آية ''اقتلوهم حيث ثقفتموهم أخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل''، مثلاً، فيخرجوا بها عن سياقها، أو يغالوا في تطبيقها، بما يؤدي إلى الوقوع في التطرف.

لستُ ممن يدافعون عن ''داعش''، أو يبررون أفعالها، وليست غايتي عقد المقارنات بين إجرام المتطرفين، لكن لا أدري الآن لما تبدو ممارسات تنظيم الدولة –داعش– في قطع رؤوس أعدائها، وصلبهم، أو جلدهم، أهون، وأخف وطأةً من أفعال الصليبيين، في أكل لحوم البشر، وشرب دمائهم، ومن مواقف الكرادلة، والبطاركة المشرقيين، المدافعين عن الإرهاب، باسم مكافحته؛ ذلك أن دوافع الكثير من منتسبي التنظيم، ليست بدونية دوافع أولئك، ثم إن ''داعش'' لا تطبق جزاءاتها إلا على أعدائها المحاربين، أو على منتهكي قوانينها، ولم يصل إجرامها بعد، حد تعميمه على المدنيين، من الأطفال، والشيوخ، والنساء، فضلاً عن الكلاب.

بين الصراخ والجمير...
طمنوه حتى الموت رحلة إلى سجن صيدنايا العسكري

ل.ن

سريعاً مررنا بجانبه، لفتتني الأسوار العالية من بعيد، لكنني لم أعرف يومها إلا اسمه (سجن صيدنايا العسكري)، في تلك الرحلة، زرت صيدنايا، أوقفتني الرسوم والصلبان، لكنني بعد سنوات، وحين التقيته، عاتبت نفسي طويلاً، هناك كان يتعذب مع الآلاف، ولم أشعر بهم، حقيقةً لم نشعر بهم يوماً. حدثني بعد 8 سنوات قضاها في سجن صيدنايا، رغم أنه لم يكن سجيناً عسكرياً، ولا حتى إسلامياً، اعتقلوه لأن والده كان فيما مضى من الإخوان المسلمين، وغادر البلاد منذ 30 عاماً، هناك (تتمنى لو تموت، تتمنى لو أنك لم تخلق، يتحول صراخك إلى جعير، ولا تدري حقاً من منكما الوحش، أنت أم من يعذبونك). لاحقاً حين اشتعلت نيران الثورة، وفضحت الكثير من الخفايا، نصحتني صديقة بأن اقرأ رواية (القوقعة- يوميات متلصص)،

وكما لو أنهما كانا في سجن واحد، رغم تباعد فترة اعتقالهما، كاتب الرواية وصديقي. يتسع سجن صيدنايا حسب ما تورد مواقع الكترونية (لأكثر من 15 ألف سجين، وفي عام 2008 كان فيه ما يقارب 2000 سجين، معظمهم جنود خالفوا القوانين العسكرية، أما السجناء السياسيون فوصل عددهم إلى نحو 300 سجين على خلفيات إسلامية وأغلبهم شاركوا في مقاومة الغزو الأمريكي للعراق، ويتكون المبنى من ثلاثة طوابق، يضم كل جناح في كل طابق عشرين زنزانةً جماعية، ويحوي الطابق الأول على 100 زنزانة انفرادية). لا شك أن هذه الأعداد تضاعفت مراتٍ عديدة، لا سيما خلال سنوات الثورة، ولا شك أيضاً أن أساليب التعذيب تطورت، بما يتماشى مع نوعية السجناء وانتماءاتهم والتهم الموجهة إليهم، لكن ما يحزن، أن تلك الممارسات، قديمة جداً، لم يعرف بها الاعلام أو ربما لم يجرؤ على تداولها، والأهم أن الناس لم يدركوا أن أعداداً من السوريين عايشوا كل ذلك، في وقتٍ كنا نظن فيه أن الحياة تسير بشكلٍ طبيعي، كانوا يموتون دون أن نعلّق حتى بكلمة. في العام الماضي، أصدرت الرابطة السورية للدفاع عن حقوق الإنسان تقريراً خاصاً تناول أوضاع السجناء وظروفهم الكارثية في سجن صيدنايا العسكري، وذكرت فيه أن المنظومة الصحية داخل السجن منهارة تماماً، وتنتشر بين المعتقلين الكثير من الأمراض المعدية الخطيرة كالسل والحمى التيفية، إضافةً إلى الأمراض الجلدية والالتهابات الناتجة عن التعذيب كتقرح الجروح والغرغرينا. وجاء في التقرير شهادة لمعتقلٍ سابق، تحدث فيها عن إعدام طفلٍ من حمص، وكانت تهمته البصق على تمثال الرئيس السابق حافظ الأسد، (وقد قام الحراس بإيعاز من الملازم المسؤول برميه على الأرض وهو مقيد اليدين ثم بدؤوا بطعنه وجرحه بالسكاكين والدعس عليه وشتمه وضربه إلى أن فارق الحياة، وكان يصرخ ويستغيث، لكني لم أتمكن من فعل شيءٍ لذلك الصبي). والخوف أن نقف نحن أيضاً، بعجزٍ، أمام ما يحدث في سجن صيدنايا وغيره، ولا زالت مجزرة عام 2008 حاضرةً في الأذهان، يومها قتلت قوات الشرطة العسكرية العشرات من السجناء إثر احتجاجٍ قاموا به، وربما لا يعرف كثيرون أن سجن صيدنايا يضم اليوم نساءً وأطفالاً، يتفنن أبناء جلدتنا بتعذيبهم.

حنين...

يصرخُ بي الحنين لتلك الصباحات الدمشقية، برفقةِ حبيبةٍ خرجت من بين سطوري، في شتاء بلادي، فغدت كمعطفٍ يضم أفكاري وثورتي، يشعل اشتياقي للحروف، يلهب الغضب بداخلي، يجمع شتات نفسي بين ذات العاشق والثائر، والتوفيق بين ذاتين يعني المزاوجة بين مفهومين، قد يعتبران متناقضان، لكنما الأيام تكشف عن التكامل وإمكانية الولوج إلى تلك العوالم برفقة من تشاء، ممسكاً بيد حبيبة، صارت زوجةً وتوأماً لروحك... محتمياً بظل وطنٍ يتسع لكما... ولكل قصائدك... لثورتك... لقلمك... وطنٌ تحتمي به كما تحتمي بصدر أنثى، تغرف منه قطرات الندى من فوق وريقات الأيام...

إنها الذاكرة، ذاكرةٌ تعني انتمائك لكل هذه المعاني... فالوطن فكرة... والأنثى فكرة... الثورة فكرة، جميعها أفكار... ترتيب الأفكار حسب الأولويات ضرورة في زمن الحرب.

تحتاج لفنجان قهوةٍ، وعيناك ترابط عند ثغرٍ ما، بينما تسرح بعالم خيالك قليلاً نحو طفلٍ يلعب في حديقة... ربما هو طفلك... يدك تمسك بالزناد وأخرى تكتب للتاريخ... تحنو إلى زوجةٍ تركتها بعيداً تلك الليلة، تشتاق لمداعبة خصلاتٍ من شعرها... لكنه الجهاد... حالاتٌ عشقيةٌ تموج بداخلي، بل ربما بداخل من عرف الحب في شوارع مدينةٍ بحجم دمشق، حتماً لأن ظلال ياسمينها فوق رؤوس العاشقين وتدليه يكاد يشابه يد الأم التي تبارك حبك... إنه الشعاع الذي افتقده كل مأسورٍ... والسجون في أيامنا لا تحصى... فأنت معتقلٌ في زنزانةٍ تحت السماء، تلك السماء التي لم نعرف يوماً أنها تمطر الرعب، الموت، الدمار... معتقلٌ في زنزانة الأفكار التي لابد من ركنها جانباً ربما لترى الضياء ذات انتصار، وما أصعب أن تكون معتقلاً للحرية التي حاربت من أجلها... الحرية في زماننا قيدٌ جديد، ليس لذاتها، حتماً إن وراء كل قيدٍ من وضعه بيدك... ربما الظروف... ربما الحب... ربما الخوف... جميع تلك المعاني قيود... وحدها الوريقات البيضاء، وإن بدت عاريةً من الكتابةِ فهي بشكلٍ ما ترمز للنقاء، ولربما تصبح السطور قيد...

تقلبتُ في أحوالِ هذه القيود، فما وجدت غير عالمي القديم، على ضفاف الفرات افترش جسدي فوق العشب وأرسم ملامح وجهها تلك الأنثى التي باتت حقيقةً، تارةً أرسمها بقلمي... تارةً ألونها بريشتي... ولحن الناي يستمر، ويخفت صوت الرصاص... الباب يفتح نحو المستقبل...

نمتطي صهوة الخيال، ما عاد في زماننا شيءٌ يسمى الخيال... فالثورةُ تصنع الحقائق رغم ما قد يظنه البعض من أوهام... أو عوائق... أيُّ عوائق في الطريق زائلةٌ كالزبد، فقط حينما تنزل دمشق لتستحم بالفرات كعروس... حينها تنطلق بأنشاك في فضاءاتٍ واسعةٍ تمتد بلا حدودٍ، ولا تعرف النهايات...

ذاته الحنين يصبح هاجساً ينهضُ ما تبقى من رماد رجولتي، يلملمني، يرصف حروفي، لأكتب لأول مرةٍ لحبيبتين، لأميرتي أخلدها، لدمشق أرصع رأسها بتاج انتصارٍ لكرامتها...

ربما ينقذها دمي ذات يومٍ من غفوتها... أو لربما يروي تربتها... أو لعله يمتزج بشقائق النعمان... ويعود الشتاء ربيعاً، لكنني يومها لن أنزع معطفي...!؟

يومها سيعلن المحبون ولائهم لفكرتهم، ويعبون على جسورٍ بنيناها لهم،

يحملون متاعهم والكثير من أفكارهم ليعاودوا بناء ما هدمتهم سنوات الحرب، هؤلاء الذين يوماً لم يؤمنوا بها، إلا عندما غادروها، فاشتاقوا لها على وجه الشوق لا أكثر، حتى إذا تزينت عادوا...

لا يهم... الأهم أننا زيناها لجيلٍ بقي داخلها وسيحافظ عليها.

فايز الغندور
شهيداً تحت التعذيب

تاريخ المدينة يغص بأسماء الشهداء، منهم من تعاملنا معهم وعرفناهم عن كثب، منهم من كان صاحب دورٍ ومبادرة، وآخرون كانت قلوبهم مع الثورة، كثيرون هم الذين سمعنا حكايتهم مع النظام، واختلفت طرق استشهادهم بين إعدامٍ ميداني، وقصفٍ بالهاون، أو تحت التعذيب في المعتقلات، لكننا في النهاية عرفناهم، حين حملناهم على الظهور، لنوصلهم إلى مثواهم الأخير، إن تمكنا من الوصول إلى جثامينهم.

تحت التعذيب لقي الشباب السوريون قدرهم بعد معاناةٍ حكاها لنا من سلم وخرج، حكاياتٌ تقشعر لها الجلود، عن بشاعة المعاملة، وتعدد أساليب التعذيب، أما الرحمة فلا وجود لها في قلب الجلاد، أو سمه إن شئت القاتل بالوكالة عن نظامٍ لم يعترف أن هذا الشاب أو ذاك هو ابن بلده، وكيف تعرف الرحمة طريقها لقلوبٍ مغلولةٍ بالحقد متعطشةٌ لإراقة الدماء.

في المعتقل همجيةٌ ما بعدها همجية، كثيراً ما خلفت ورائها الجراح التي لن تندمل، وحصدت المئات من الأرواح، فالقتل للقتل لا أكثر، والقتل للترهيب والتشفي ليس إلا.

فايز الغندور، واحدٌ من أولئك الذين تم اعتقالهم من على حاجز قاسيون بتاريخ 1/1/2013 واقتيد إلى الفرع 215 وتحت التعذيب وقسوته يرتقي بإذن الله شهيداً، بتاريخ 30/9/2013 ... وبين استشهاده واعتقاله أشهرٌ قليلة تعطي بكل تأكيد كم التعذيب الذي تعرض له، تاركاً ورائه ولدين، ويضاف اسم " فايز الغندور " إلى لوحة الشرف، ولزمرةٍ طويلةٍ من الأسماء وقوافل الشهداء في مدينة قدسيا.

التعذيب أبشع طرق الموت، لكنه في النهاية يعطي لصاحبه وسام الشهادة بإذن الله تعالى، والمسلمون على يقينٍ من ذلك بل مدركون أن النصر لا يأتي إلا بعد سويعات العذاب والصبر، أسوتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله عليهم " عمار وبلال " وغيرهم.

والتاريخ شاهدٌ على مثل هذا، وذاكرة الناس تمتلئ بحكايات مشابهة، وربما تحمل العجب معها، منها ما سجل على الصفحات، ومنها ما بقي طي الأحاديث العابرة دون معرفة شخوص القصة.

رحم الله شهداء سوريا جميعاً، ونسأله تعالى أن يصبر ذويهم، ويجعل من دمائهم وحكاياتهم نبراساً لمن خلفهم.

شهداؤنا في الذاكرة دوماً... لن ننساكم حتى نلتقي بكم .